

المالك المتصرف ، وأنه الإله الذي لا يستحق العبادة سواه ؛ وهكذا أقسم ضمام في سؤاله على رسول الله ﷺ كما رواه الإمام أحمد حيث قال : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس ، قال : كنا نبيتا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء ، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع .
فجاء رجل من أهل البادية فقال : يا محمد إنه أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك ، قال : «صدق» قال : فمن خلق السماء ؟ قال «الله» قال : فمن خلق الأرض ؟ قال «الله» قال : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ قال : «الله» قال : فبالذي خلق السماء والأرض ونصب هذه الجبال الله أرسلك ؟ قال : «نعم» : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا ؟ قال : «صدق» قال : فبالذي أرسلك الله أمرك بهذا ؟ قال : «نعم» قال : وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا ؟ قال «صدق» قال : فبالذي أرسلك الله أمرك بهذا ؟ قال : «نعم» قال : وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلاً . قال : «صدق» قال ثم ولى فقال : والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن شيئاً ولا أنقص منهن شيئاً ؟ فقال النبي ﷺ : «إن صدق ليدخلن الجنة» .

وقد رواه مسلم عن عمرو الناقد عن أبي النضر هاشم بن القاسم به ، وعلقه البخاري ورواه الترمذي والنسائي من حديث سيبان بن المغيرة به ، ورواه الإمام أحمد والبخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث الليث بن سعد عن سعيد القبري عن شريك بن عبد الله بن أبي ثمر عن أنس به بطوله وقال في آخره : وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر ، وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا إسحاق حدثنا عبد الله بن جعفر ، حدثني عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : كان رسول الله ﷺ كثيراً ما كان يحدث عن امرأة في الجاهلية على رأس جبل معها ابن صغير لها ترعى غنماً ، فقال لها ابنها يا أمه من خلقت ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق أبي ؟ قالت : الله . قال : فمن خلقني ؟ قالت : الله ، قال : فمن خلق السماء ؟ قلت : الله ، قال : فمن خلق الأرض ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق الجبل ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق هذه الغنم ؟ قالت : الله ، قال : فإني لأسمع لله شأناً وألقى نفسه من الجبل فتقطع . قال ابن عمر : كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يحدثنا هذا . قال ابن دينار : كان ابن عمر كثيراً ما يحدثنا بهذا ، في إسناده ضعف وعبد الله بن جعفر هذا هو المدني ضعفه ولده الإمام علي بن المدني وغيره .

وقوله تعالى : ﴿فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر﴾ أي فذكر يا محمد الناس بما أرسلت به إليهم ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ ولهذا قال ﴿لست عليهم بمصيطر﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : ﴿لست عليهم بجبار﴾ أي لست تخلق الإيمان في قلوبهم ، وقال ابن زيد : لست بالذي تكرههم على الإيمان . قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع عن سفيان عن أبي الزبير عن جابر ، قال : قال رسول الله ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل» ثم قرأ : ﴿فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر﴾ وهكذا رواه مسلم في كتاب الإيمان والترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سننهما من حديث سفيان بن سعيد الثوري به بهذه الزيادة ؛ وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من رواية أبي هريرة بدون ذكر هذه الآية .
وقوله تعالى : ﴿إلا من تولى وكفر﴾ أي تولى عن العمل بأركانه وكفر بالحق بجنانه ولسانه ، وهذه كقوله تعالى : ﴿فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى﴾ ولهذا قال : ﴿فيعذب الله العذاب الأكبر﴾ قال الإمام أحمد : حدثنا قتبية ، حدثنا ليث عن سعيد بن أبي هلال عن علي بن خالد أن أبا أمامة الباهلي مر على خالد بن يزيد بن معاوية ، فسأله عن آية من آية سمعها من رسول الله ﷺ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «ألا كلكم يدخل الجنة إلا من شرد على الله شراد البعير على أهله» ، تفرد بإخراجه الإمام أحمد وعلي بن خالد ، هذا ذكره ابن أبي حاتم عن أبيه ولم يزد على ما ههنا ، روى عن أبي أمامة وعنه سعيد بن أبي هلال ، وقوله تعالى : ﴿إن إلينا إيابهم﴾ أي : مرجعهم ومنقلبهم ﴿ثم إن علينا حسابهم﴾ أي نحن نحاسبهم على أعمالهم ونجازهم بها إن خيراً فخير وإن شراً فشر . آخر تفسير سورة الغاشية ، والله الحمد والمنة .



قال النسائي : أنا عبد الوهاب بن الحكم أخبرني يحيى بن سعيد عن سليمان بن محارب بن دينار وأبي صالح عن جابر قال : صلى معاذ صلاة ، فجاء رجل فصلى معه ، فطول فصلى في ناحية المسجد ثم انصرف ، فبلغ ذلك معاذ فقال منافق ،

فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فسأل النبي فقال : يا رسول الله : جئت أصلي معه فطول علي ، فانصرفت واصلت في ناحية المسجد ، فعلقت ناقتي ، فقال رسول الله ﷺ «أفتان يا معاذ؟ أين أنت من سبح اسم ربك الأعلى - والشمس وضحاها - والفجر - والليل إذا يغشى» .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيْلٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرَ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حَمِيرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخَلِّقْ مِثْلَهَا فِي الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ وَتَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَارِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَاكْتَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لِيَا لَمْرَصَادٍ ﴿١٤﴾

أما الفجر فمعروف وهو الصبح ، قاله علي وابن عباس وعكرمة ومجاهد والسدي ، وعن مسروق ومحمد بن كعب : المراد به فجر يوم النحر خاصة ، وهو خاتمة الليالي العشر ، وقيل المراد بذلك الصلاة التي تفعل عنده كما قاله عكرمة ، وقيل المراد به جميع النهار ، وهو رواية عن ابن عباس ، والليالي العشر المراد بها عشر ذي الحجة كما قاله ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وغير واحد من السلف والخلف ، وقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس مرفوعاً «ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام» يعني عشر ذي الحجة قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال «ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجلاً خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك بشيء» وقيل : المراد بذلك العشر الأول من المحرم ، حكاه أبو جعفر بن جرير ولم يعزه إلى أحد ، وقد روى أبو كدينة عن قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن عباس «وليل عشر» قال : وهو العشر الأول من رمضان ، والصحيح القول الأول . قال الإمام أحمد : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنا عياض بن عقبة ، حدثني خير بن نعيم عن أبي الزبير عن جابر عن النبي ﷺ قال «إن العشر عشر الأضحى ، والوتر يوم عرفة ، والشفع يوم النحر» ورواه النسائي عن محمد بن رافع وعبد بن عبد الله ، وكل منهما عن زيد بن الحباب به ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث زيد بن الحباب به ، وهذا إسناد رجاله لا بأس بهم وعندني أن المتن في رفعه تكارة والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿والشفع والوتر﴾ قد تقدم في هذا الحديث أن الوتر يوم عرفة لكونه التاسع ، وأن الشفع يوم النحر لكونه العاشر ، وقاله ابن عباس وعكرمة والضحاك أيضاً [قول ثان] وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثني عقبة بن خالد عن واصل بن السائب قال : سألت عطاء عن قوله تعالى : ﴿والشفع والوتر﴾ قلت صلاتنا وترنا هذا؟ قال : لا ولكن الشفع يوم عرفة والوتر ليلة الأضحى [قول ثالث] قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عامر بن إبراهيم الأصبهاني ، حدثني أبي عن النعمان ، يعني ابن عبد السلام ، عن أبي سعيد بن عوف ، حدثني بمكة قال : سمعت عبد الله بن الزبير يحطب الناس ، فقام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين أخبرني عن الشفع والوتر ، فقال : الشفع قول الله تعالى : ﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه﴾ والوتر قوله تعالى : ﴿ومن تأخر فلا إثم عليه﴾ وقال ابن جرير : أخبرني محمد بن المرتفع أنه سمع ابن الزبير يقول : الشفع أوسط أيام التشريق والوتر آخر أيام التشريق ، وفي الصحيحين من رواية أبي هريرة عن رسول الله ﷺ «إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر» . [قول رابع] قال الحسن البصري وزيد بن أسلم : الخلق كلهم شفع ووتر أقسم تعالى بخلقه ، وهو رواية عن مجاهد والمشهور عنه الأول ، وقال العوفي عن ابن عباس «والشفع والوتر» قال : الله وتر واحد ، وأنتم شفع ، ويقال الشفع صلاة الغداة والوتر صلاة المغرب .

[قول خامس] قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي يحيى عن مجاهد «والشفع والوتر» قال : الشفع الزوج ، والوتر : الله عز وجل . وقال أبو عبد الله عن مجاهد : الله الوتر وخلقته الشفع الذكر والأنثى وقال : ابن أبي نجیح عن مجاهد قوله «والشفع والوتر» كل شيء خلقه الله شفع . السماء والأرض

والبر والبحر والجن والإنس والشمس والقمر ونحو هذا ، ونحا مجاهد في هذا ما ذكره في قوله تعالى : ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ أي لتعلموا أن خالق الأزواج واحد [قول سادس] قال قتادة عن الحسن ﴿والشفع والوتر﴾ هو العدد منه شفع ومنه وتر .

[قول سابع في الآية الكريمة] رواه ابن أبي حاتم وابن جرير من طريق ابن جريج ثم قال ابن جرير : وروي عن النبي ﷺ خبر يؤيد القول الذي ذكرنا عن ابن الزبير ، حدثني عبد الله بن أبي زياد القبطاني ، حدثنا زيد بن الحباب أخبرني عياض بن عتبة ، حدثني خبر بن نعيم عن أبي الزبير عن جابر أن رسول الله قال «الشفع اليومان والوتر اليوم الثالث» هكذا ورد هذا الخبر بهذا اللفظ ، وهو مخالف لما تقدم من اللفظ في رواية أحمد والنسائي وابن أبي حاتم وما رواه هو أيضاً والله أعلم . قال أبو العالية والربيع بن أنس وغيرهما : هي الصلاة منها شفع كالرباعية والثنائية ، ومنها وتر كالمغرب فإنها ثلاث وهي وتر النهار ، وكذلك صلاة الوتر في آخر التهجد من الليل . وقد قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن عمران بن حصين ﴿والشفع والوتر﴾ قال هي الصلاة المكتوبة منها شفع ومنها وتر وهذا منقطع وموقوف ولفظه خاص بالمكتوبة وقد روي متصلاً مرفوعاً إلى النبي ﷺ ولفظة عام .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو داود هو الطيالسي ، حدثنا همام عن قتادة عن عمران بن عصام أن شيخاً حدثه من أهل البصرة ، عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ سئل عن الشفع والوتر فقال «هي الصلاة بعضها شفع وبعضها وتر» هكذا وقع في المسند ، وكذا رواه ابن جرير عن بشار عن عفان وعن أبي كريب عن عبد الله بن موسى كلاهما عن همام ، وهو ابن بجي ، عن قتادة عن عمران بن عصام ، عن شيخ عن عمران بن حصين ، وكذا رواه أبو عيسى الترمذي عن عمرو بن علي عن ابن مهدي وأبي داود ، كلاهما عن همام عن قتادة عن عمران بن عصام عن رجل من أهل البصرة ، عن عمران بن حصين به ، ثم قال : غريب لا نعرفه إلا من حديث قتادة ، وقد رواه خالد بن قيس أيضاً عن قتادة ، وقد روي عن عمران بن عصام عن عمران نفسه والله أعلم .

[قلت] : ورواه ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان الواسطي ، حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا همام عن قتادة عن عمران بن عصام الضبيعي شيخ من أهل البصرة عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ ، فذكره هكذا ، رأيته في تفسيره فجعل الشيخ البصري هو عمران بن عصام . وهكذا رواه ابن جرير : أخبرنا نصر بن علي ، حدثني أبي ، حدثني خالد ابن قيس عن قتادة عن عمران بن عصام عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ في الشفع والوتر قال «هي الصلاة منها شفع ومنها وتر» فأسقط ذكر الشيخ المهيم ، وتفرد به عمران بن عصام الضبيعي أبو عمارة البصري إمام مسجد بني ضبيعة . وهو والد أبي حمزة نصر بن عمران الضبيعي ، روى عنه قتادة وابنه أبو حمزة والمثنى بن سعيد وأبو التياح يزيد بن حميد ، وذكره ابن حبان في كتاب الثقات ، وذكره خليفة بن خياط في التابعين من أهل البصرة ، وكان شريفاً نبيلاً حظياً عند الحجاج بن يوسف ، ثم قتله يوم الرواية سنة ثنتين وثمانين لخروجه مع ابن الأشعث ، وليس له عند الترمذي سوى هذا الحديث الواحد ، وعندني أن وقفه على عمران بن حصين أشبه والله أعلم ، ولم يجزم ابن جرير بشيء من هذه الأقوال في الشفع والوتر .

وقوله تعالى : ﴿والليل إذا يسر﴾ قال العوفي عن ابن عباس : أي إذا ذهب ، وقال عبد الله بن الزبير ﴿والليل إذا يسر﴾ حتى يذهب بعضه بعضاً ، وقال مجاهد وأبو العالية وقاتة ومالك عن زيد بن أسلم وابن زيد ﴿والليل إذا يسر﴾ إذا سار ، وهذا يمكن حمله على ما قال ابن عباس أي ذهب ، ويحتمل أن يكون المراد إذا سار أي أقبل ، وقد يقال إن هذا أنسب لأنه في مقابلة قوله ﴿والفجر﴾ فإن الفجر هو إقبال النهار وإدبار الليل ، فإذا حمل قوله ﴿والليل إذا يسر﴾ على إقباله كان قسماً بإقبال الليل وإدبار النهار وبالعكس كقوله ﴿والليل إذا عمس والصبح إذا تنفس﴾ وكذا قال الضحاك ﴿والليل إذا يسر﴾ أي يجري ، وقال عكرمة ﴿والليل إذا يسر﴾ يعني ليلة جمع ليلة المزدلفة . رواه ابن جرير وابن أبي حاتم .

ثم قال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن عصام ، حدثنا أبو عامر عن كثير بن عبد الله بن عمرو قال : سمعت محمد بن كعب القرظي يقول في قوله ﴿والليل إذا يسر﴾ قال : أسر يا سار ولا تبيتين إلا بجمع ، وقوله تعالى : ﴿هل في ذلك قسم لذي حجر﴾ أي لذي عقل ولب وحج ، وإنما سمي العقل حجراً لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق به من الأفعال والأقوال ، ومنه حجر البيت لأنه يمنع الطائف من اللصوق بجداره الشامي ، ومنه حجر اليهامة ، وحجر الحاكم على فلان إذا منعه التصرف ويقولون حجراً محجوراً . كل هذا من قبيل واحد ، ومعنى متقارب ، وهذا القسم هو بأوقات العبادة وبنفس العبادة من حج وصلاة وغير ذلك من أنواع القرب التي يتقرب بها إليه عباده المتقنون المطيعون له ، الخائفون منه المتواضعون لديه الخاشعون لوجهه الكريم ، ولما ذكر هؤلاء وعبادتهم وطاعتهم قال بعده : ﴿أم تر كيف فعل ربك بعاد؟﴾

وهؤلاء كانوا متمردين عتاة جبارين خارجين عن طاعته مكذبين لرسله جاحدين لكتبه ، فذكر تعالى كيف أهلكتهم ودمرهم وجعلهم أحاديث وعبراً فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * ﴾ وهؤلاء عاد الأولى وهم ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح ، قاله ابن إسحاق ، وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هوداً عليه السلام فكذبوه وخالفوه ، فأنجده الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم وأهلكهم ببريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية وقد ذكر الله قصتهم في القرآن في غير ما موضع ليعتبر بمصرعهم المؤمنون ، فقوله تعالى : ﴿ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ عطف بيان زيادة تعريف بهم .

وقوله تعالى : ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد وقد كانوا أشد الناس في زمانهم خلقة وأقواهم بطشاً ، ولهذا ذكرهم هود بتلك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي خلقهم فقال : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُضَاهِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً ؟ أُولَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ وقال ههنا : ﴿ الَّذِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ أي القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلادهم لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم ، قال مجاهد : إرم ، أمة قديمة يعني عاداً الأولى ، قال قتادة بن دعامة والسدي : إن إرم بيت مملكة عاد ، وهذا قول حسن جيد قوي ، وقال مجاهد وقاتدة والكلبي في قوله ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ كانوا أهل عمد لا يقيمون ، وقال العمري

عن ابن عباس : إنما قيل لهم ذات العمد لظوهم ، واختار الأول ابن جرير ورد الثاني فأصاب .
وقوله تعالى : ﴿ الَّذِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ أعاد ابن زيد الضمير على العمد لارتفاعها وقال بنوا عمدماً بالأحقاف لم يخلق مثلها في البلاد ، وأما قتادة وابن جرير فأعاد الضمير على القبيلة أي لم يخلق مثل تلك القبيلة في البلاد يعني في زمانهم ، وهذا القول هو الصواب ، وقول ابن زيد ومن ذهب مذهبه ضعيف لأنه لو كان المراد ذلك لقال الذي لم يعمل مثلها في البلاد وإنما قال ﴿ لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو صالح كاتب الليث ، حدثني معاوية بن صالح عن حدثنا عن المقدم عن النبي ﷺ أنه ذكر إرم ذات العمد فقال : « كان الرجل منهم يأتي على الصخرة فيحملها على الحمي فيهلكهم » ثم قال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا أبو الطاهر ، حدثنا أنس بن عياض عن ثور بن زيد الديلي قال : قرأت كتاباً قد سمي حيث قرأه أنا شداد بن عاد وأنا الذي رفعت العمد وأنا الذي شدت بذراعي نظري واحد وأنا الذي كنتز كنتزاً على سبعة أذرع لا يخرج إلا أمة محمد ﷺ (قلت) : فعلى كل قول سواء كانت العمد أبنية بنوها أو أعمدة بيوتهم للبدو أو سلاحاً يقاتلون به أو طول الواحد منهم ، فهم قبيلة وأمة من الأمم ، وهم المذكورون في القرآن في غير ما موضع المقرونون بشمود كما ههنا ، والله أعلم .

ومن زعم أن المراد بقوله ﴿ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ مدينة إما دمشق كما روي عن سعيد بن المسيب وعكرمة ، أو اسكندرية كما روي عن القرظي أو غيرها فيه نظر ، فإنه كيف يلتئم الكلام على هذا ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ إن جعل ذلك بدلاً أو عطف بيان ، فإنه لا يتسق الكلام حينئذ ، ثم المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد وما أحل الله بهم من بأسه الذي لا يرد ، لا أن المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم . وإنما نهت على ذلك لئلا يغتر بكثير عما ذكره جماعة من المفسرين عند هذه الآية من ذكر مدينة يقال لها : إرم ذات العمد ، مبنية بلبن الذهب والفضة قصورها ودورها وبساتينها ، وأن حصانها لآلئ وجواهر وترابها بنادق المسك وأنهارها سارحة وثمارها ساقطة ، ودورها لا أنيس بها وسورها وأبوابها تصفر ليس بها داع ولا حبيب ، وأنها تنتقل فتارة تكون بأرض الشام وتارة باليمن وتارة بالعراق وتارة بغير ذلك من البلاد ، فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين من وضع بعض زنادقتهم ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس أن تصدقهم في جميع ذلك .

وذكر الثعلبي وغيره أن رجلاً من الأعراب وهو عبد الله بن قلابة في زمان معاوية ذهب في طلب أباعر له شردت ، فبينما هو يتيه في ابتغائها إذ اطلع على مدينة عظيمة لها سور وأبواب ، فدخلها فوجد فيها قريباً مما ذكرناه من صفات المدينة الذهبية التي تقدم ذكرها ، وأنه رجح فأخبر الناس فذهبوا معه إلى المكان الذي قال فلم يروا شيئاً . وقد ذكر ابن أبي حاتم قصة إرم ذات العمد ههنا مطولة جداً فهذه الحكاية ليس يصح إسنادها ، ولو صح إلى ذلك الأعرابي فقد يكون اختلق ذلك أو أنه أصابه نوع من الهوس والخيال ، فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج وليس كذلك ، وهذا مما يقطع بعدم صحته ، وهذا قريب مما يخبر به كثير من الجهلة والطامعين والمتحيلين من وجود مطالب تحت الأرض ، فيها فتاير الذهب والفضة واللوان الجواهر واليواقيت واللآلئ والإكسير الكبير ، لكن عليها موانع تمنع من الوصول إليها والأخذ منها ، فيحتالون على أموال الاغنياء والضعفة والسفهاء فيأكلونها بالباطل في صرفها في بخاخير وعقاقير ونحو ذلك من الهديات ويطنون بهم ،

والذي يجزم به أن في الأرض دفتان جاهلية وإسلامية وكنوزاً كثيرة من ظفر بشيء منها أمكنه تحويله ، فأما على الصفة التي زعموها فكذب وافتراء وبهت ولم يصح في ذلك شيء عما يقولون إلا عن نقلهم أو نقل من أخذ عنهم والله سبحانه وتعالى الهادي لنصواب .

وقول ابن جرير يَحْتَمَلُ أن يكون المراد بقوله ﴿إِرم ذات العماد﴾ قبيلة أو بلدة كانت عاد تسكنها فلذلك لم تصرف ، فيه نظر لأن المراد من السياق إنما هو الاخبار عن القبيلة ، ولهذا قال بعده : ﴿وثمود الذين جابوا الصخر بالواد﴾ يعني يقطعون الصخر بالوادي ، قال ابن عباس ينحتونها ويحرقونها ، وكذا قال مجاهد وقناة والضحاك وابن زيد ومنه يقال مجتاري النار إذا خرقوها ، واجتار الثوب إذا فتحه ومنه الجيب أيضاً وقال الله تعالى : ﴿وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين﴾ وأنشد ابن جرير وابن أبي حاتم ههنا قول الشاعر :

ألا كل شيء ما خلا الله بائد كما باد حي من شنيف ومارد
هم ضربوا في كل صياء صعدة بأيد شداد أيدت السواعد

وقال ابن إسحاق : كانوا عرباً وكان منزههم بوادي القرى ، وقد ذكرنا قصة عاد مستقصاة في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته . وقوله تعالى : ﴿وفرعون ذي الأوتاد﴾ قال العوفي عن ابن عباس : الأوتاد الجنود الذين يشدون له أمره ، ويقال كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم في أوتاد من حديد يعلقهم بها ، وكذا قال مجاهد كان يوتد الناس بالأوتاد ، وهكذا قال سعيد بن جبيرة والحسن والسدي . قال السدي : كان يربط الرجل في كل قائمة من قوائمه في وتد ثم يرسل عليه صخرة عظيمة فيشدخه ، وقال قتادة : بلغنا أنه كان له مظال وملاعب يلعب له تحتها من أوتاد وحبال ، وقال ثابت البناني عن أبي رافع : قيل لفرعون ذي الأوتاد لانه ضرب لامراته أربعة أوتاد ، ثم جعل على ظهرها رحي عظيمة حتى ماتت . وقوله تعالى : ﴿الذين طغوا في البلاد * فأكثروا فيها الفساد﴾ أي تمردوا وعتوا وعانوا في الأرض بالافساد والأذية للناس ﴿فصب عليهم ربك سوط عذاب﴾ أي أنزل عليهم رجلاً من السماء وأحل بهم عقوبة لا يردها عن القوم المجرمين .

وقوله تعالى : ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ قال ابن عباس : يسمع ويرى يعني يرصد خلقه فيها يعملون ويجازي كلاً بسعيه في الدنيا والأخرى ، وسيعرض الخلائق كلهم عليه فيحكم فيهم بعدله ويقابل كلاً بما يستحقه ، وهو المنزه عن الظلم والجور . وقد ذكر ابن أبي حاتم ههنا حديثاً غريباً جداً وفي إسناده نظر وفي صحته ، فقال : حدثنا أبي ، حدثنا أحمد بن أبي الحواري ، حدثنا يونس الخذاء عن أبي حمزة البيساني عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ : «يا معاذ إن المؤمن لدى الحق أسير ، يا معاذ إن المؤمن لا يسكن روعه ولا يأمن اضطرابه حتى يخلف جسر جهنم خلف ظهره ، يا معاذ إن المؤمن قيده القرآن عن كثير من شهواته وعن أن يهلك فيها هو بإذن الله عز وجل فالقرآن دليله ، والخوف محجته ، والشوق مطيته ، والصلاة كهفه ، والصوم جنته ، والصدقة فكاكه ، والصدق أميره ، والحياء وزيره ، ورببه عز وجل من وراء ذلك كله بالمرصاد» .

قال ابن أبي حاتم : يونس الخذاء وأبو حمزة مجهولان وأبو حمزة عن معاذ مرسل ، ولو كان عن أبي حمزة لكان حسناً أي لو كان من كلامه لكان حسناً ، ثم قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا صفوان بن صالح حدثنا الوليد بن مسلم عن صفوان بن عمرو عن أيّفع عن ابن عبد الكلاعي أنه سمعه وهو يعظ الناس يقول : إن لجهنم سبع قناطر قال : والصراف عليهن ، قال : فيحس الخلائق عند القنطرة الأولى فيقول ﴿قفوهم إهم مسؤولون﴾ قال : فيحاسبون على الصلاة ويسألون عنها ، قال : فيهلك فيها من هلك وينجو من نجا ، فإذا بلغوا القنطرة الثانية حوسبوا على الأمانة كيف أدوها وكيف خاندوها ، قال : فيهلك من هلك وينجو من نجا ، فإذا بلغوا القنطرة الثالثة سئلوا عن الرحم كيف وصلوها وكيف قطعوها ، قال : فيهلك من هلك وينجو من نجا ، قال : والرحم يومئذ متدلّية إلى الهوى في جهنم تقول : اللهم من وصلني فصله ، ومن قطعني فاقطعه ، قال : وهي التي يقول الله عز وجل ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ هكذا أورد هذا الأثر ولم يذكر تمامه .

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَّهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ

﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَّهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَلْ لَأَكْرَمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحْضُوا عَلَىٰ طَعَامِ

الْيَتِيمِينَ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُوا ثَرَاتِهِمْ أَكَلًا لَمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّوا أَمْوَالَ حُبَّامِنًا ﴿٢٠﴾

يقول تعالى متكرراً على الإنسان في اعتقاده إذا وسع الله تعالى عليه في الرزق ليختبره في ذلك ، فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له وليس كذلك بل هو ابتلاء وامتحان كما قال تعالى : ﴿أَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نَسَارِعَ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحناه وضيق عليه في الرزق يعتقد أن ذلك من الله إهانة له ، قال الله تعالى : ﴿كَلَّا﴾ أي ليس الأمر كما زعم لا في هذا ولا في هذا ، فإن الله تعالى يعطي المال من يحب ومن لا يحب ، ويضيق على من يحب ومن لا يحب ، وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كل من الخالين : إذا كان غنياً بأن يشكر الله على ذلك وإذا كان فقيراً بأن يصبر ، وقوله تعالى : ﴿بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ﴾ فيه أمر بالإكرام له كما جاء في الحديث الذي رواه عبد الله بن المبارك عن سعيد بن أيوب عن يحيى بن سليمان عن يزيد بن أبي غياث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه - ثم قال بإصبعه - أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا .

وقال أبو داود : حدثنا محمد بن الصباح بن سفيان ، أخبرنا عبد العزيز يعني ابن أبي حازم ، حدثني أبي عن سهل يعني ابن سعيد أن رسول الله ﷺ قال «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة» وقرن بين إصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام ، «ولا تخاضون على طعام المسكين» يعني لا يأمرن بالإحسان إلى الفقراء والمسكين ويحث بعضهم على بعض في ذلك «وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ» يعني الميراث «أَكْلًا لَمًا» أي من أي جهة حصل لهم من حلال أو حرام «وتحبون المال حباً جماً» أي كثيراً ، زاد بعضهم فاحشاً .

كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿١٦﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿١٧﴾ وَجِئْنَا بِبُيُوتِهِمْ

بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنْذِرُ الْإِنْسَانَ وَآنٍ لَهُ الذِّكْرَى ﴿١٨﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿١٩﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ﴿٢٠﴾

وَأَبْوُنُقٍ وَذَافِقُ أَحَدًا ﴿٢١﴾ يَتَابَعُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٢﴾ أَرْجَى إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَُرْضِيَةً ﴿٢٣﴾ أَدْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٤﴾ أَدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٢٥﴾

يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة من الأهوال العظيمة ، فقال تعالى : ﴿كَلَّا﴾ أي حقاً «إذا دكت الأرض دكاً دكاً» أي وطئت ومهدت وسويت الأرض والجبال وقام الخلائق من قبورهم لربهم «وجاء ربك» يعني لفصل القضاء بين خلقه وذلك بعدما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق محمد صلوات الله وسلامه عليه ، بعدما يسألون أولي العزم من الرسل واحداً بعد واحد ، فكلهم يقول : لست بصاحب ذاكم حتى تنتهي النبوة إلى محمد ﷺ فيقول «أنا لها أنا لها» فيذهب فيشفع عند الله تعالى في أن يأتي لفصل القضاء ، فيشفعه الله تعالى في ذلك ، وهي أول الشفاعات وهي المقام المحمود كما تقدم بيانه في سورة سبحان ، فيجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء كما يشاء ، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفًا صفوفًا .

وقوله تعالى : ﴿وجيء يومئذ بجهنم﴾ قال الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه : حدثنا عمر بن حفص بن غياث ، حدثنا أبي عن العلاء بن خالد الكاهلي عن شقيق عن عبد الله هو ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها» وهكذا رواه الترمذي عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي عن عمر بن حفص به ، ورواه أيضاً عن عبد بن حميد عن أبي عامر عن سفيان الثوري عن العلاء بن خالد بن شقيق بن سلمة ، وهو أبو وائل ، عن عبد الله بن مسعود قوله ولم يرفعه ، وكذا رواه ابن جرير عن الحسن بن عرفة عن مروان بن معاوية الفزاري عن العلاء بن خالد عن شقيق عن عبد الله قوله . وقوله تعالى : ﴿يومئذ يتذكر الإنسان﴾ أي عمله وما كان أسلفه في قديم دهره وحديثه «وأن له الذكرى» أي وكيف تنفعه الذكرى «يقول يا ليتني قدمت حياتي» يعني يتندم على ما كان سلف منه من المعاصي إن كان عاصياً ويود لو كان ازداد من الطاعات إن كان طائعاً كما قال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا علي بن إسحاق ، حدثنا عبد الله يعني ابن المبارك ، حدثنا ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن جبير بن نفير عن محمد بن عمرة ، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ ، قال : لو أن عبداً خر على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت في طاعة الله لحقره يوم القيامة ، ولو أنه رد إلى الدنيا كما يزداد من الأجر والثواب .

قال الله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴾ أي ليس أحد أشد عذاباً من تعذيب الله من عصاه ﴿ وَلَا يُوَثِّقُ وِثْقَهُ أَحَدٌ ﴾ أي وليس أحد أشد قبضاً ووثقاً من الزبانية لمن كفر بربه عز وجل ، وهذا في حق المجرمين من الخلائق والظالمين ، فأما النفس الزكية المطمئنة وهي الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق فيقال لها ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ أي إلى جواره وثوابه وما أعد لعباده في جنته ﴿ رَاضِيَةً ﴾ أي في نفسها ﴿ مَرْضِيَةً ﴾ أي قد رضيت عن الله ورضي عنها وأرضاهها ﴿ فَادْخِلِي فِي عِبَادِي ﴾ أي في جملتهم ﴿ وَادْخِلِي جَنَّتِي ﴾ وهذا يقال لها عند الاحتضار وفي يوم القيامة أيضاً ، كما أن الملائكة يشيرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره ، فكذلك ههنا .

ثم اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية ؛ فروى الضحاك عن ابن عباس : نزلت في عثمان بن عفان ، وعن بريدة بن الحصيب : نزلت في حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه . وقال العوفي عن ابن عباس : يقال للأرواح المطمئنة يوم القيامة ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ يعني صاحبك وهو بدنها الذي كانت تعمه في الدنيا ﴿ رَاضِيَةً مَرْضِيَةً ﴾ وروي عنه أنه كان يقرؤها ﴿ فَادْخِلِي فِي عِبَادِي وَادْخِلِي جَنَّتِي ﴾ وكذا قال عكرمة والكلبي ، واختاره ابن جرير وهو غريب ، والظاهر الأول لقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدُّوا إِلَىٰ اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ ﴾ ﴿ وَأَنْ مَرَدْنَا إِلَىٰ اللَّهِ ﴾ أي إلى حكمه والوقوف بين يديه . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الدستقي ، حدثني أبي عن أبيه عن أشعث عن جعفر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَةً ﴾ قال : نزلت وأبو بكر جالس فقال : يا رسول الله ما أحسن هذا ، فقال «أما إنه سيقال لك هذا» ثم قال : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا ابن يمان عن أشعث عن سعيد بن جبير قال : قرأت عند النبي ﷺ ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَةً ﴾ فقال أبو بكر رضي الله عنه إن هذا لحسن ، فقال له النبي ﷺ «أما إن الملك سيقول لك هذا عند الموت» وكذا رواه ابن جرير عن أبي كريب عن ابن يمان به وهذا مرسل حسن .

ثم قال ابن أبي حاتم وحدثنا الحسن بن عرفة حدثنا مروان بن شجاع الجزري عن سالم الأفيطس عن سعيد بن جبير قال : مات ابن عباس بالطائف فجاء طير لم ير على خلقته فدخل نعشه ثم لم ير خارجاً منه فلما دفن نليت هذه الآية على شفير القبر لا يدري من تلاها ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَةً فَادْخِلِي فِي عِبَادِي وَادْخِلِي جَنَّتِي ﴾ ورواه الطبراني عن عبد الله بن أحمد عن أبيه عن مروان بن شجاع عن سالم بن عجلان الأفيطس به فذكره . وقد ذكر الحافظ محمد بن المنذر الهروي المعروف بشكر في كتاب المعجائب بسنده عن فتان بن رزين أبي هاشم قال : أسررت في بلاد الروم فجمعنا الملك وعرض علينا دينه على أن من امتنع ضربت عنقه فارتد ثلاثة وجاء الرابع فامتنع فضربت عنقه وألقي رأسه في نهر هناك فرسب في الماء ثم طفا على وجه الماء ونظر إلى أولئك الثلاثة فقال : يا فلان ويا فلان ويا فلان يتناديهم بأسمائهم قال الله تعالى في كتابه ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَةً فَادْخِلِي فِي عِبَادِي وَادْخِلِي جَنَّتِي ﴾ ثم غاص في الماء وقال فكادت النصارى أن يسلموا ووقع سرير الملك ورجع أولئك الثلاثة إلى الإسلام قال وجاء الفداء من عند الخليفة أبي جعفر المنصور فخلصنا .

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة رواحة بنت أبي عمرو الأوزاعي عن أبيها حدثني سليمان بن حبيب المحاربي حدثني أبو امامة أن رسول الله ﷺ قال لرجل «قل اللهم إني أسألك نفساً بك مطمئنة تؤمن بقلبانك وترضى بقضائك وتقتنع بعطائك» ثم روي عن أبي سليمان بن وبرة أنه قال : حديث رواحة هذا واحد أمه ، آخر تفسير سورة الفجر ، والله الخمد والمنة .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُنْفِيسٌ هَذَا الْبَلَدِ ① وَأَنْتَ حِلٌّ هَذَا الْبَلَدِ ② وَاللِّدِّ وَمَا وُلِدَ ③ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبْرٍ ④ أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَفْعِدَّ عَلَيَّ ⑤
أَحَدٌ ⑥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا لَبْدًا ⑦ أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ⑧ أَلَمْ نَجْعَلْ لَمْ عَيْنَيْنِ ⑨